مقدمة قاموس ܣܝܡܬܐ ܕܠܫܢܐ ܣܘܪܝܝܐ كنز اللغة السريانية

للمطران العلأمة توما أودو

إنَّ ذاك الذي اكتشف الكتابة في العالم قدَّم للجنس البشري نعمة (خدمة) كبيرة، يستحق من أجلها المديح الدائم، والشكر الذي لا يتوقف، مع هذا قاسم مبدع هذه الصناعة الغالية الثمن الأول وإدخالها للعالم مجهول غير معروف، ولا يعرف بأي زمن حدث هذا، ولكن من الثابت معرفة أية أمة بدأت الكتابة مبكراً، أية أمة علمت الكتابة لبقية الأمم، لهذا نقول:

إن الأمة السريانية كان لها شرف السمو بهذا على جميع الأمم القديمة المعروفة، فهي التي اكتشفت صناعة الكتابة، وهي التي علمتها لبقية الشعوب، وواضح أن كل أمم أوربا الغربية والشمالية تعلمت فن الكتابة من الرومان، أي من أبناء روما العظمى، ومعروف أيضاً أن الرومان تعلموها من اليونان، كما تعلموا منهم بقية صنائع العلوم والمعارف.

إن اليونان دون مواربة كانوا يسَمون على كل الشعوب ويفوقونهم بالحكمة والمعارف والصنائع والفضائل، وأخذوا نعمة الكتابة من السريان، في وهذا الأمر لا شك لأنه مدوَّن في كتب اليونان القدماء عام ١٥٠٠ أو ١٥٩٠ ق .م، حيث غادرت مجموعة من الناس من فينيقيا التي هي الجهة الداخلية الغربية بين بلاد السريان وبلاد اليونان، وحملت معها إلى هناك الحروف السريانية، واستعملها اليونان من ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا، ومذكور أن قدمو أو كملسِمِ يه اليونان قدموس هو الذي نشر الكتابة السريانية في بلاد اليونان، وها إن اليونان يحفظون حتى اليوم أسماء تلك الحروف السريانية وتركوهم حسب الترتيب الذي كان موجوداً عند السريان، على عكس ما فعل العرب الذين غيروا أسماء الحروف التي أخذوها من السريان وغيروا نظامها، وأكثر من هذا نستطيع القول: إن اليونان حافظوا على تسلسل أسماء الحروف السريانية أفضل من السريان أنفسهم، ويضيفون لآخر الأسماء ألف الإطلاق كما اعتاد السريان أن يفعلوا بكل الأسماء التامة، ويقولون (اليونان): ܐܠܦܐ. ܒܝܬܐ. ܓܡܠܐ. ܕܠܬܐ، أبجد، ...إلخ، وترك اليونان أيضاً معظم تلك الحروف بالأشكال الموجودة لدى السريان، لكنهم بدؤوا الكتابة من اليسار إلى اليمين، لا من اليمين إلى الشمال كما يكتب السريان، وأن الفينيقيين لم يكتشفوا حروف الكتابة من ذات أنفسهم، لكنهم تعلموها من السريان المشارقة كالبابليين والآثوريين، هذا لا يحتاج إلى برهان، لأن القصة لا تذكر أن الفينيقيين في تلك الأيام القديمة أبدعوا شيئاً ما، على عكس الآشوريين البابليين الذين عندهم قامت الممالك القديمة في العالم، هم وضعوا قبل كل الأمم المعروفة (آنذاك) أسس العمران في الدنيا، هذا بالنسبة للشعوب الغربية.

أمّا للشعوب الشرقية فهم بلا شك تعلموا الكتابة من السريان، لأننا نعلم أن اليهود كانوا يرتبون حروفهم حسب ترتيب الحروف السريانية أي أنهم كانوا يقولون: أبجد هوز حطي...إلخ، كان هذا في عهد الملك داؤد كما يتضح من مزاميره وآياتهم القديمة، فيبدؤون حروفهم حسب ترتيب الحروف السريانية، لذا بلا جدال فإن هاتين الأمتين أعني السريانية والعبرية، أخذت الواحدة من رفيقتها هذا الترتيب الهجائي للحروف بسبب وحدته لدى الاثنين، لأن اليهود أو العبريين أمضوا أجيالاً عديدة في العبودية والتيه (تائهين)، ولم يكن لهم استقرار وقوة أدبية إلاّ في عهد مملكة داؤد، ويتضح أن اليهود لم يبتدعوا نظام حروف الهجاء، لكنهم تعلموه من السريان، وإن كانوا قد تعلموا ترتيب الحروف، فبالتأكيد قد تعلموا الحروف نفسها، أي الكتابة، إذ ليس من المعقول أن يكون للعبريين في وقت من الأوقات نظام ما للحروف وتركوه، وأخذوا النظام الجديد للحروف من الآراميين.

ومعروف أيضاً بما لا يدع مجالاً للشك أن الفرس قديماً كانوا يكتبون بالسريانية كما تشهد العهود، ولا يخفى على العارفين أن الأرمن حتى القرن السادس بعد المسيح لم يكن لهم حروف خاصة، وكانوا يكتبون بالحروف السريانية حتى قام في القرن المذكور مسروب الرجل العامل المشهور في أرمينيا، وأوجد الحروف التي يستعملها الأرمن، وتدعى حروف مسروب حتى يومنا هذا. (المعرب، جوزيف أسمر، الصحيح مسروب في القرن الخامس)، والعرب أيضاً ومنذ ألف وخمسمئة عام على وجه التقريب أخذوا الكتابة من السريان، لكنهم شيئاً فشيئاً أدخلوا على الخط السرياني تعديلات وتحديدات غير قليلة حتى انتهوا للكيفية التي هو عليه الخط العربي الذي نراه اليوم.

فتأمل كيف أن كل الأمم القديمة المشهورة تعلمت فن الكتابة الثمين من الأمة السريانية.

وشكل الحروف القديمة التي اكتشفها الأراميون غير معروف بالتأكيد كيف كان، لأنه بتوالي العهود والأزمان وتغير الأمكنة، دخل تغيير غير قليل على أغلب تلك الحروف حتى تغيرت عن شكلها القديم، ومعروف أنه من نوع الكتابة المبكرة المذكورة، تكونت أشكال أخرى كثيرة، كانت تشبه بعضها البعض بتغير الزمن والمكان، ونوع الكتابة الآرامية الأقدم من الكتابات الآرامية الأخرى وصل إلى أيامنا هذه هو البابلي الذي استعمل في أيام كورش ملك الفرس، وهو الأقرب من كل الخطوط الأخرى للخط الآرامي المبكر، تعلمه اليهود أثناء سبيهم في بابل، وبعد عودتهم لأرضهم استعملوه بدون انقطاع حتى يومنا هذا، ويسمونه الحرف الآثوري، والإفرنج (الأوربيون) يسُمونه الخط المربع، لأن أغلب حروفه هي مربعة الشكل، ومفصولة عن بعضها البعض في الكتابة، وتشبه كثيراً الحروف اليونانية التي كما ذكرنا انتقلت إليهم من الآراميين في البداية، ترى إذن أن رسم الحروف الآرامية الأكثر قدماً من رفاقها والمحفوظة حتى الآن، هذا الذي لا يستعمله هؤلاء الآراميون، ولا يعرفونه، تستعمله أمة غريبة، أعني اليهود، فيحترمونه ويعظمونه كثيراً، حتى ليعتبرون أن كل ما يكتب به مقدساً.

ومن شكل الحروف البابلية اشتق شيئاً فشيئاً الخط الذي يدعى اسطرنجيلي في عهد ظهور المسيح على الأرض، وهو القلم السرياني الأول بالمعرفة والشهرة، وحروفه كلها تشبه كثيراً جداً حروف القلم البابلي المذكور سابقاً، وعندما ترسخ ذلك البابلي بالكيفية التي وصل إليها، دعي اسطرنجيلياً فيما بعد، اتخذه السريان، وأمسكوا به، وتركوا ما قبله، وتخلوا عنهم، ولم يبق حتى أثر صغير منهم، ولم يعرف منها شيء، ولا إن كانت موجودة، لكنهم لم يفعلوا ذلك بالرسوم التي تكونت وتفصلت بعد ذلك التاريخ من الحرف الاسطرنجيلي، لكنهم حفظوه واستخدموه حتى يومنا هذا.

وكما انبثق القلم الاسطرنجيلي باستعمال واسع من ذلك القلم البابلي، هكذا بكثرة الاستعمال انبثق من الاسطرنجيلي قلم آخر قليل الصعوبة، سريع الانتشار، نستطيع أن نُسَميه،قلم المجتمع العادي، وكان هذا معروفاً ومنتشراً في القرون الأولى للمسيحية، وخُصص الخط الاسطرنجيلي لكتاب الإنجيل وبقية الكتب المقدسة، وربما لهذا السبب سُمّي اسطرنجيلي، أي أسطر الإنجيل بتقديم الراء على الطاء من أجل تسهيل اللفظ، وهنالك من يقول إن هذه اللفظة (اسطرنجيلي) هي لفظة يونانية، أي المدور أو المربع، ربما دُعي كذلك لأن حروفه في الأغلب لها شيء من التدوير، وهنالك من يقول إنه اسم علم لشخص اهتم في الأزمنة الأخيرة بإحياء هذا القلم ونشره، لأنه قبل ذلك الزمن كان قد نُسِي، وأُهمل عند السريان المغاربة، لكن السريان الشرقيين لم يهملوه كما يذكر ابن العبري في كتابه تاريخ الزمان، حيث يقول: إن يوحانون أسقف قرتمين في نهاية القرن العاشر المسيحي، اهتم أن يُحيي الحروف الاسطرنجيلية في طور عبدين القريب من مدينة ماردين، وتوقف استعماله لأكثر من مئة عام، كذلك عمانوئيل ابن أخي الأسقف المذكور كتب أكثر من سبعين كتاباً من الأسفار المقدسة وكتب أخرى معتبرة لدى اليعاقبة بالحروف الاسطرنجيلية.

بعدما خُصص القلم الاسطرنجيلي لكتابة الأسفار المقدسة، والآخر لبقية الكتابات، وبتعاقب الأجيال على هذا الأخير (الاسطرنجيلي)، الذي تطور شيئاً فشيئاً، ومن تطوره نشأ قلمان آخران، أحدهما يدعى: قلم السريان الشرقيين، أي النساطرة، وبه نسخت كل كتبنا، ومستخدم عندنا الآن، والآخر قلم السريان الغربيين، أعني اليعاقبة والموارنة والسريان المعروفين بالكاثوليك، وبه كتبت كل كتبهم، الذين بواسطة المتعلمين الموارنة دخلت المطابع الأوربية في القرون الثلاثة التي قبل قرننا الحالي، أعني القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وحتى الأيام الأخيرة لم يكن يوجد في أوربا غير هذا القلم، ومنذ فترة قصيرة استخدم الخط السرياني الشرقي في مطبوعات الغربيين في النرويج، وأقول، وفي أمريكا ولندن وروما في بروبكندة (مجمع انتشار الأنجيل) قبل الآخرين، وفي فلايسفيج حيث يوجد الأب بولس بيجان اللعازري وأصله من خوسر أباد في سلامس وهو يشمر في المغرب والمشرق قلم السريان المشارقة بطبع أغلب الكتب المفيدة، وبهذا يتوجب علينا مدح وشكر الرجل المذكور، وهكذا في الموصل عند الآباء الدومنيكان، وفي أورميا عند المرسلين الأمريكيين من الجماعة التي تُدعى (فريسبيت ريثا، دار نشر)، وعند رسل رئيس أساقفة كانتربري للكنيسة الانكليكانية التي تدعى العالية، وها هي تطبع الكتب شيئاً فشيئاً بقلمنا هذا.

ويوجد قلم ثالث اشتق من القلم العادي القديم كالقلمين المذكورين آنفاً، وهو خاص بالسريان السائرين حسب طقس كنيسة القسطنطينية منذ القرن الثامن الميلادي، ويسُمّون اليوم يونانيين أو روم ملكيون، حدث هذا بسبب وحدة الطبيعة، وسُمّوا: يونانيون مع الآخرين الذين بقوا مشتركين مع الملك مرقيانوس ومع كرسي روما بعدما حُرم تعليم أصحاب الطبيعة الواحدة في مجمع خلقيدونية، لأن الملك مرقيانوس المذكور صادق حقق ذلك الحرم، وحافظ على ذلك الحرم والإثم، لكن هذا القلم كان وجوده قليلاً، ويشبه كثيراً الخط العادي القديم المذكور آنفاً.

لا يعرف إذن الزمن الذي اكتشفت فيه تلك الأقلام الثلاثة الجديدة وتثبتوا حسب وظيفتهم الحالية، ولا يمكن أن يكونوا قد وجدوا في نفس الوقت، لكنه واضح من الكتب التي وصلت إلينا عبر القرون الماضية أن القلم الذي كان يستخدمه السريان المغاربة كان مستخدماً قبل عهد ابن العبري الذي عاش في القرن الثالث عشر، ويتضح لنا أن قلم السريان المشارقة أو النساطرة هو أحدث من صديقه، وانتشر بشكل متميز بواسطة الكتّاب الألقوشيين الكثيري العدد في القرون الأخيرة، فنسخوا وكتبوا أغلب الكتب، خصوصاً الكنسية، ونخص بالذكر عشيرة القس إسرائيل المعروفة بآل الكبير، وعشيرة القس هومو الذين أكثروا وأثمروا بأقلامهم الجميلة في كل مكان مثقفين سريان شرقيين.

لكن لا يخفى أن الكتابة الآرامية كانت خالية من الحركات والتشكيل، القارئ من ذاته كان يشكل ويحرك الحرف حسب معنى اللفظة، كما يفعل اليوم العرب والفرس والسريان، حيث لا يريدون أن يتعبوا أنفسهم بوضع النقاط التي لهم اليوم، لهذا فإن اليونان عندما تعلموا الكتابة من الآراميين، ورأوا أن ليس فيها حركات وتشكيل، فرزوا ستة من تلك الحروف الآرامية، واستخدموها كحركات، وأعني بها: الألف الهاء والواو والحاء والياء والعين، الذين بشكلهم هم الحركات اليونانية: (N, Y, E, I, A, O)، وهكذا وجدت الحركات في كل الكتابات الأوربية، فرقت من بعضها كما نرى في الكتابة اليونانية التي اشتقت من الآرامية، ولهذا فإن الحروف في كل اللغات الأوربية تقسم لنوعين متميزين: الصوتية والصامتة، أقصد تلك التي وضعت بشكل حركات فهي صوتية، وبقية الحركات هي الصامتة، الآراميون وكل المشارقة الذين استخدموا الخط الآرامي، بقوا قروناً عديدة يكتبون بلا حركات في أغلب مخطوطاتهم التي سطروها في أزمنة مختلفة، حتى العرب عندما أخذوا الكتابة من السريان لم يأخذوا غير الحروف، وهم بأنفسهم اكتشفوا الحركات المستعملة عندهم الآن، وحدث هذا في القرن الثامن الميلادي عند ظهر وانتشر المسلمون في العالم، وحركاتهم هي ثلاث: الفتحة والضمة والكسرة، هكذا فعل العبريون في ذلك القرن، أو بعد بضع سنوات، فقد زادوا على الخط البابلي الذي تعلموه من السريان، ويستعملونه حتى اليوم، حيث اكتشف معلموهم حركات خاصة بهم، وهي: قُمص (T) يساوي الضم، فتاح (-) ويساوي الفتح، صري (..) ضم، ܣܓܘܠ، ضم قاس، ܫܘܐ، ܚܛܦ (-)، وكسر طويل، ܫܘܪܩ (ܺ) = رواح. ܚܘܠܡ (ܻ) الرباص، ܫܘܐ ܢܥ (.) مثل كسرة العرب، قُموص حُطوف، رواح قِ بوص (:) الرباص.

كذلك فإن الآراميين كتبوا في أغلب القرون بدون حركات، وقبل كل شيء ولمنع وقوع الإشكال بين الحروف المتشابهة في القراءة، استعملوا نقطة صغيرة هي واحدة من العلامات التي ترسم فوق أو تحت الحروف المتشابهة، واستخدام النقطة المذكورة سرت بكثرة بين السريان الغربيين، لأن الشرقيين قليلاً مااستعملوها، أو استعملوها ثم تركوها بعد اكتشاف نقاط القراءة الدقيقة، لهذا نادراً ما نجدها في كتبهم القديمة، ولا نعرف بالتأكيد في أي زمن بدأ استخدام نقطة (ܢܘܩܙܐ)، ولكن بلا شك فقد استخدمت في القرن الرابع الميلادي، وكتب عنها بوضوح مار يعقوب الرهاوي في القرن السابع الميلادي، لكن المعلمين السريان رأوا فيما بعد أن هذه النقطة لوحدها لا تكفي لتقييم أو تصحيح الكتابة، حيث كانت القراءة: التعليم والكتابة قد سُهلت وانتشرت في المجتمع، وارتضوا أن يوجدوا علامات واضحة لتمييز الحركات من بعضها في اللغة السريانية، وها إن ابن العبري يذكر أن مار يعقوب الرهاوي قبل الجميع عرف هذا الفن، حيث وضع حركات معينة ترسم داخل الحروف، ليعرف كيف تُحرَّك، لكن هذه الطريقة لم تنجح، ومن حينها أُهملت، وبعد مدة غير طويلة عرف أن طريقتين أخريين للحركات قد اكتشفتا، نشرتا وعرفتا، وعمل بهما حتى يومنا هذا.

واحدة منهما هي نقطة دقيقةترسم أحياناً فوق الحرف، وأحياناً أخرى تحت الحرف، وأحياناً أخرى توضع فوقه وتحته بنفس الوقت نقطة واحدة صغيرةأو أكثر لتعرف خاصيتها، وهذه الطريقة منتشرة لدى السريان الشرقيين خصوصاً، وحركاتهم هي: (ܙܩܦܐ، زقاف، فتحة بمد الألف)، (ܦܬܚܐ، فتحة)، (ܪܒܨܐ ܟܪܝܐ، زلام سهل، كسر خفيف). (ܐܪܒܨܐ ܐܪܝܟܐ، زلام قاس، كسر مُمال)، (ܚܒܨܐ، حباص، كسر مُشبَّع بالياء)، (ܪܘܚܐ، رواح، ضم مُطلق نحو الفتح)، (ܪܒܨܐ ܐܘ ܥܨܨܐ، رباص أو عماق كالواو).

أمّا الطريقة الثانية فهي أن الحركات اليونانية أخذها السريان الغربيون في القرن الثامن الميلادي على وجه التقريب، وأخذوا خمس حركات يونانية سبق ذكرها، وكتبوها فوق الحرف أو تحته لمعرفة حركاتها، وهي: ܐܳ، ܗܰ، ܘܳ، ܝܺ، ܥܶ، وهذه أشكالها: (ܰ، ܦܬܳܚܐ ،الفتحة)، (ܳ، ܙܩܳܦܐ ، زقاف، الضمة القصيرة)، (ܺ، ܚܒܳܨܐ ، حباص، الكسرة الطويلة)، (ܶ، ܪܒܳܨܐ، رباص، الكسرة القصيرة)، (ܽ، ܥܨܳܨܐ ، عصاص، الضمة الطويلة)، لكن حروف ܗܐ، ܚܝܬ، ܥܐ، الهاء والحاء والعين، هي حركات حنجرية لا تُسمع، أُخذت من الحروف الصوتية اليونانية، ألا ترى أن ما عمله السريان في الحركات إلاتكراراً لما فعله اليونان بالحروف السريانية قبل قرون؟، واسترجعوا من اليونان ما سبق وقدموه إليهم مع

أشياء أخرى كثيرة، وهذه الطريقة لم يستعملها إلاّ السريان الغربيون بلفظهم، ولم تكن مطلقاً لدى السريان الشرقيين، ولم تعرف أي من الطريقتين، النقاط الدقيقة الحروف كانت سابقة للأخرى، ولم يعرف اسم أو مكان من اكتشفهما، ويبدو أن ابن العبري أيضاً لم يكن يعلم ذلك، وليس بعيداً عن الحقيقة أن الحروف اليونانية بدأ استعمالها في القرن الثامن الميلادي من قبل بعض المتوحدين اليعاقبة في دير قرقفتا بطور عبدين، حيث عملوا كثيراً، ونسخوا كتباً عديدة، وخطوا كتابتهم بالحروف اليونانية، ويتضح مما كتب قبل القرن الثامن الميلادي لم يكن للسريان الشرقيين والغربيين والعرب والعبريين وكل الأمم السامية علامات للحركات الصوتية في كتابتهم.

نقدم كلمة مختصرة عن اللغة السريانية نفسها: ليس خافياً على أحد من العلماء أن اللغة السريانية كانت في يوم من الأيام لغة شعب كبير وقوي، حيث كانت تستخدم في قسم كبير من بلاد الشرق، أعني سوريا وبلاد ما بين النهرين وآثور وأرض شنعار ما يحيط بها، كل تلك البلاد كما يبدو من الأسفار القديمة كانت تدعى عند اليهود بلاد آرام، لأن آرام بن سام كان قد تسلط على تلك البلاد، وملأها بنسله، لذا فإن اللغة السريانية لا تُدعى في التوراة إلاّ آرامية، وهذا هو اسمها الصحيح القديم كما يبدو لنا، وهؤلاء السريان بذاتهم يُسمون لغتهم بهذا الاسم، واسم سرياني لا يظهر إلا عند الكتّاب والمؤلفين اليونان والرومان قبل عهد المسيح، لأن الديانة المسيحية في جزء من بلاد آرام التي دعاها اليونان خصوصاً سوريا بدأت وانبثقت، وفي أنطاكية أم المدن، المكان الأول الذي دُعي به تلاميذ المسيح مسيحيين (أعمال الرسل ١١ - ٢٦)، لهذا فإن الذين آمنوا بالمسيح من الآراميين دعولسرياناً، والآراميون كأمة قبل الكل تبعوا المسيحية، واحتضنوا علومها، وشيئاً فشيئاً اختفى الاسم الآرامي، والأمة الآرامية بكل أسباط فروعها دُعيت سريانية، ولغتها سُميت سريانية حتى يومنا هذا.

ومعروف أن اللغة السريانية هي من اللغات المعروفة بالسامية التي كان يتكلمها أبناء سام، والأشهر في تلك اللغات التي تكلمها أبناء سام هي: العبرية والسريانية والعربية والحبشية وفروعها، لكن العربية من بين هذه اللغات هي الأغنى والأفضل والأكثر استعمالاً، وقواعدها جيدة دون وجود اختلافات فيها، ومعرفة هذه اللغة ضرورية لكل من يريد أن يتعلم اللغات الأخرى بالتمام والكمال.

لغتنا الآرامية أي السريانية طرأ عليها تغيير كبير بمرور قرون كثيرة عليها، كما يحدث لكل الألسنة، وكل الأعمال الإنسانية، لذلك فإن اللغة الآرامية تغيرت حسب تغير الأمكنة والأزمنة، وانقسمت لفروع عديدة.

اللغة السريانية المعروفة اليوم، هي تلك التي بعد تغيرات كثيرة، انتهت عندها اللغة الآرامية القديمة، لغة بلاد آرام عند قرب وعد ظهور السيد المسيح على الأرض، منذ ذلك الزمن بقي على حاله، ولم يطرأ عليه أي تغيير حتى يومنا هذا، عدا بعض ما لا يستحق الذكر، وكل الكتب المتوفرة بين أيدي السريان بهذه اللغة مكتوبة، والعلة الحقيقية والمرض الدائموحسرات أمتنا السريانية الكثيرة لم تحفظ شيئاً أو حرفاً واحداً من الكتب أو الصحف القديمة لما بعد المسيحية على عكس الأمم الأخرى المشهورة بشهرة السريان مثل اليهود اليونان واللاتين، بسبب إبادة السريان لآثارهم اللغوية السريانية القديمة، فإن الأمة السريانية لا تعرف شيئاً من أخبار آبائها وممالكها وحروبهم وعاداتهم كل ما يدل عليهم، وإن أرادت أن تحقق تلك الحاجات، فعليها أن تفتش مؤلفات الغرباء، خصوصاً اليهود واليونان، ولولا مؤلفات هؤلاء لما عرفنا شيئاً عن أحوال الآراميين القدماء، والبلاد التي كانوا يسكنونها حتى فجر المسيحية.

إن اللغة السريانية المعروفة اليوم هي نوعان، أعني لهجتين، واحدة منهما تدعى شرقية، والأخرى تدعى غربية، والمجتمع في وقتنا الحاضر يُسّمي اللهجة الشرقية كلدانية وَهْماً (خطأ)، والسريانية الغربية بسيطة، فالشرقية كانت كلام المناطق الشرقية من بلاد آرام المحددة من الجهة الغربية بإقليم نصيبين أو صوبا، وكان بضم آثور وبابل، ويُسمّى اليوم العراق ومادي، والجانب الشرقي لبلاد ما بين النهرين، وهي مستخدمة اليوم لدى السريان الشرقيين حيثما وجدوا خصوصاً في الطقس والمؤلفات، وقسم كبير منهم يتكلم بها في هذا الزمان، لكن بنبرة كبيرة.

أمّا اللهجة الغربية فتستخدم لدى السريان الغربيين الكاثوليك واليعاقبة والموارنة كنسياً، لكن جزءاً من اليعاقبة قرب ماردين وجزيرة بازبدي يتكلمون بالعامية مخلوطة وفاسدة، وهذه اللهجة الغربية تُسمّى أيضاً رهاوية نسبة إلى مدينة الرها التي كانت مزدهرة بها، والشرقية تُكنّى أيضاً صوباوية لأنها في صوبا أي نصيبين حيث كانت توجد جامعة، أعني مكان دراسة عامة للسريان الشرقيين النساطرة، وبها دُرس، ومنها تخرج معلمون وملافنة مشهورون، وكتبوا، وتكلموا باللهجة الشرقية بكثرة وببهاء ومدح.

والفرق بين هاتين اللهجتين ليس جذرياً؛ إنما الفرق هو بلفظ بعض الحركات وبالحروف وبرسمها فحسب، ولم يحدث هذا التغيير من عمل أو صنع أحد المعلمين فقط، لكنه حصل كبقية الاختلافات التي وجدت في كل زمان ومكان بين أبناء بلد وآخر في الكلام والأشخاص والعادات وغيرها، ولا نشك بأن اللهجة الشرقية التي يدعونها اليوم كلدانية كانت عامية، ولم تكن رسمية وهي الأكثر قرباً للغة الآرامية الصحيحة والقديمة، أمّا اللهجة الغربية فقد تكونت دون شك بنوع متميز عموماً من القرن الثامن، وحتى بعد اكتشاف الحركات عن طريق الحروف التي اشتقت من اليونانية لمعرفة الرفع، أخذت واو صغيرة يونانية، ولفظها بين الفتح والرفع، فوقع وهْم كبير، لذلك فإن ابن العبري المعلم العظيم في الكل احتقر اللهجة الشرقية مع الأسف، ومن السهل إذن الإجماع على أن هؤلاء الذين أدخلوا اللغة السريانية للجامعات الأوربية أخطؤوا، لأنهم اختاروا لفظ السريان الغربيين الذي انتشر في كل الجامعات الأوربية وفروعها، وكان من الأفضل لهم أن يختاروا لفظ السريان الشرقيين، لأنه الأفضل من رفيقه وهو الأقدم والأكثر صحة.

وللغة السريانية مزايا عظيمة تتزين بها، وتفوق الآخرين، يأتي في مقدمتها أن قسماً من الكتب المقدسة التي أحلها الروح القدس في قلوب مختاريه، كجزء كبير من أسفار نبوة دانيال، وسفر عزرا، وسفر نحميًا وغيرها من العهد القديم، وأميل للظن بأن بشارة متى كتبت أولاً بالسريانية، والميزة الثانية: إن سيدنا يسوع المسيح ووالدته مريم العذراء ورسله الأطهار، تكلموا بهذه اللغة، ومعروف أيضاً أن اليهود في زمن السيد المسيح لم يكونوا يتكلمون اللغة العبرية لغة آبائهم، لكن باللغة السريانية التي تعلموها في بابل عندما سباهم إلى هناك الملك نبوخذ نصر وجنوده، وحافظوا عليها بعد عودتهم لأرضهم (فلسطين)، ومعلمو اليهود أنفسهم المعروفين بالأحبار منذ ذلك الوقت يسّمون لغة اليهود آرامية أو سريانية، وفي فترة ما سمّوها آثورية، نعم إن هذه اللغة السريانية المستعملة عند اليهود دعيت العبرية الحديثة، لكن ذلك قيل لأن العبريين كانوا يتكلمون بها، وليس لأنها هي بذاتها كانت اللغة العبرية، والإفرنج كانوا يدعونها كلدانية لأنهم يعيدونها للكلدان الذين كانوا معروفين لديهم آنذاك أكثر في أرض بابل أو العراق، بهذه اللغة إذن تكلم سيدنا يسوع المسيح ووالدته مريم ورسله لأنها كانت لغة بلادهم وأبناء جنسهم، والميزة الثالثة التي تتعظم بها اللغة السريانية: كونها إحدى اللغات القديمة الطقسية والتي تمجدت بكنيسة المسيح، لأن اللغة السريانية كانت الثانية بعد اليونانية في الاستخدام الكنسي بالتقديس وببقية الأعمال الدينية، نعم لا نزيد ونقول: إنها أصبحت الأولى في كل شؤون الكنيسة، نعم يرجح ذلك لأن الكنيسة الأولى التي أقامها الرسل بعد صعود السيد المسيح كانت في أورشليم كما هو واضح، ولا يرقى لذلك شكٌّ، ولغة أبناء أورشليم كما قلنا في ذلك الزمان كانت اللغة السريانية، وهي مختلفة قليلاً عن سريانية اليوم، وحتى اليوم فاللغة السريانية هي اللغة الطقسية لأغلب مسيحيي المشرق، والميزة الرابعة: إن اللغة السريانية عند عدد من المعلمين الكنسيين بالمقارنة مع اليونانية واللاتينية تأتي بعدهما، لأن كل معلمي الكنيسة حيثما وجدوا، وخلال كل القرون لم يكتبوا إلا في إحدى تلك اللغات الثلاثة، وأعني: اليونانية واللاتينية والسريانية.

بهذه الميزات وبغيرها تتسلح اللغة السريانية، واختيرت من أخواتها، وهذا هو السبب الذي من أجله فإن علماء بلغاء يعظمون مكانة اللغة السريانية ويقدرونها؛ حتى أن جامعات أوروبية كثيرة اعتادوا منذ زمن بعيد أن يدرسوها بعد العبرية واليونانية، ونستطيع القول بصدق أنه لولا أبناء الغرب والذين درسوا عندهم من الآراميين الشرقيين، لكانت هذه اللغة الثمينة قد انتهت إلى الدرك الأسفل والمهانة والفساد، وقلنا سابقاً: إن اللغة السريانية في زمن ما كانت لغة شعب كثير وقوي في بلاد المشرق، ولكن مذ جاءت القَدَم القوية لأبناء هاجر العبدة ووطئت الأمة السريانية، بدأت هذه اللغة تأفل شيئاً فشيئاً من أفواه أبناء المجتمع في كل تلك البلدان، وباتوا قلة قليلة من يتكلمها، وحتى استخدامها باللهجة العامية بقي لدى شرذمة من تلك الأمة الآرامية الكبيرة والقوية، التي حاصرتها الضيقات والاضطهادات والتغيرات المريرة للأزمنة الكثيرة، وهي لغة مختصرة (ضعيفة) وفقيرة، تتخللها مفردات غريبة من العربية والتركية والفارسية والكردية، ولا توجد زاوية في أنحاء بلاد الآراميين من يتكلم بهذه اللغة نظيفة.

في القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح كانت (السريانية) قد وصلت لقمّة الكمال بشكل متميز في جامعتي الرها ونصيبين، وبرز في تلك الأيام كتّاب مشهورون وماهرون في كل أصول المعارف والعلوم، ومن تلاهم ساروا على منوالهم، ولم يوجد من يسابقهم في هذا المضمار، ثم تحولت ذهبيّة هذه اللغة إلى فضية ومن الفضية شيئاً فشيئاً صارت حديدية في بداية هذا القرن والقرون التي سبقته، وبعد ابن العبري الذي يكنى بأبي الفرج، وهو مفريان ومعلم ماهر وعظيم نبغ في القرن الثالث عشر بين السريان الغربيين، ومار عبد يشوع الصوباوي نبغ بين السريان المشارقة في القرن الرابع عشر، وبعدهما لم يقم بين هؤلاء وهؤلاء من يستحق حقيقة المدح المتميز خصوصاً بمعرفة هذه اللغة، ونستطيع القول: إن هذه اللغة قد جُزت وقُبرت مع هذين الرجلين العالمين.

منذ سنوات بدأ يرى هنا وهناك أن هذه اللغة شرعت تبعث من رميمها، ويمسح عنها قليل من دنسها، لأنه في الموصل خصوصاً يهتم أبناء وطننا بتعليمها، ويعملون لتحقيق هذا الهدف بواسطة الكتب والأبحاث التي تطبع وتصل للمجتمع، سواء كانت باللهجة الغربية أو الشرقية، وبدون شك نستطيع القول: إن لم تكن السريانية لغة طقسية، لانمحت معرفتها في الشرق كله.

وواضح أنه ليس هنالك شيء يستطيع حفظ اللغات وإغناءها وتحصين معرفتها، ويكونها مثل كتب القواعد والقواميس، أي الكتب التي تجمع وتختزن وتفسر مفردات وألفاظ اللغة كلها، حيث تُرتب وفق نظام أبجدي، لكي يتمكن الباحث بسهولة أن يجد الألفاظ التي يشتهي معرفتها وشرحها، كثيرون ألفوا ونظموا كتب قواعد، شرحوا فيها باقتدار قوانين هذه اللغة، والأقدم الذي عرف في هذا المجال كان من السريان الشرقيين، هو يوسف هوزايا، ويكُنّى الناظر، والذي كان معلماً مشهوراً في مدرسة نصيبين، مات سنة (٥٨٠م)، والأول بين السريان الغربيين ممن ذاع صيته في هذا الفرفهو مار يعقوب أسقف الرها، وكان رجلاً مشهوراً في كل فروع العلوم، خصوصاً في أدب اللغة السريانية مات سنة (٧٠٨م)، وأعماله في هذا الفن صارت كقوانين كان يستخدمها المعلمون والطلاب لفترات غير قليلة، وبعد هذين الاثنين، كثيرون من السريان الشرقيين والغربيين وضعوا ونظموا كتباً مختلفة في قواعد هذه اللغة، نذكر منهم بين الشرقيين: يشوع دناح في القرن الثامن، وحنين الطبيب في القرن التاسع، وإيليا بن شينو أسقف نصيبين في القرن الحادي عشر، ويوحنا بن زعبي في القرن الثالث عشر، وهذا فاق جميع الذين سبقوه، حيث فصل ووسع قوانين اللغة السريانية بكفاءة، أمّا بين السريان الغربيين فنذكر: يعقوب البرطلي، ويعرف بسويريوس الذي له رسائل مختصرة عن قوانين القواعد، لكن الذي أدهش كل السريان الشرقيين والغربيين هو مار غريغوريوس ابن العبري المفريان من جماعة اليعاقبة في القرن الثالث عشر، الذي خطَّ كتباً كثيرة في كل أنواع العلوم والتعاليم والآداب، وكتب كتابين مشهورين عن اللغة السريانية، وبهما شرح ونوَّر بشكل مستفيض القوانين، أحدهما شعراً يسُمّى مدخل الأشعة، وهو مختصر، وآخر مطول نثراً، ومعروف بكتاب الأشعة، وبعد زمن ابن العبري لم يرَ بين السريان ما يستحق الذكر عن قوانين اللغة السريانية حتى قام بين الأمة المارونية التي تسكن جبل لبنان أناس أدباء باللغة السريانية، ووضعوا لها كتب قواعد جيدة في القرون الثلاثة السابقة لقرننا، وأعني: جرجس عميرة، واسحق الشدراوي، ويشوع العقراوي، وابراهيم الحاقلاني وغيرهم، عدا تلك الكتب التي ألفت في أوربا باللهجتين الشرقية والغربية في أيامنا هنا وهناك.

وأمّا من اهتم بشكل جيد في تجميع مفردات اللغة وترتيبها في قواميس فهم قلة، منهم ابن بهلول في القرن العاشر الميلادي، وحنين الطبيب الذي له قاموس تفسير الكلمات الصعبة والمتشابهة، والترجمان الذي ألّفه ... سنة ...، وزهرة المعارف الذي نظمه القس يعقوب القطربلي الذي ليس فيه غير الكلمات المرتبة حسب أوزانها سنة ...، والقس خدر الموصلي الذي جمع قاموساً سريانياًوشرحه عربياً وتركياً سنة ...، وفي أيامنا جمع الأب جبرائيل القرداحي الماروني قاموساً سريانياً وفسّره عُربياً، ومن السريان الغربيين الذين يستحقون الذكر في هذا المجال هو يوحنا فريوس اليسوعي الذي ألف قاموساً مختصراً سريانياً - لاتينياً، ثم ميخائيل أو ميخايليس الذي جمع ونظم قاموساً سريانياً لاتينياً سنة ...، أمّا الذي يستحق المدح أكثر وفاق جميع العاملين في هذا العمل الشاق والصعب فهو (باين سميث) المعلم العظيم، والشدياق الفاضل بالكل من الكنيسة الأنكليكانية التي تدعى (رمثا) الذي نظم وناسب وجمع وكدّس بمجهود عظيم وبقلق كبير، وبعملٍ حليم متأنٍ، وبحماس قوي وشديد، وبأدب واسع مفردات اللغة السريانية، ربما كلها، ومشروحة لاتينياً، وتظهر معرفته باليونانية والعبرية والعربية والفارسية والتركية والهندية وغيرها، وأضاف إليه مفردات من اللهجة العامية، أي السوادية، خصوصاً في منطقة أورميا، ولم يهمل ترتيب المفردات اليونانية المبعثرة هنا وهناك مما في الكتب القديمة، ونستطيع القول أن هذا العمل بالفن المذكور هو كامل وتام، وأخصب كثيراً من كل الذين سبقوه، لكن ومع الأسف إن المعلم النشيط والعامل فطِر من الحياة الزمنية (توفي) قبل أن يتم عمله الثمين.

ونحن أيضاً، فإن قوتنا الضعيفة لا تكفي لهذا العمل الكبير الذي تحت ثقله مازلنا حتى الآن نرزح قبل أن نضع على كاهلنا حمل رئاسة الكهنوت، أعني قبل أن نترقى بلا استحقاق لدرجة الأسقفية السامية، عندما رأينا أنه لا يوجد حتى الآن في اللغة السريانية مؤلفاً ما يضم بالكمال والتمام ألفاظ هذه اللغة الأصلية والقديمة بالطريقة المطلوبة مع توضيحها وشرحها، وتعريف استعمالها الأصلي، لأن الذين ذُكروا (القواميس) كانت ناقصة نوعاً ما، ولا ترضي بشكل كامل الطالب المجتهد الذي يشتهي أن يدرك إدراكاً متقناً ووافياً لغة آبائه، ويصبو أن يصقل كلامه، وأن يتصفّى وينظف ويزهر، وكنا قد قررنا في داخلنا أن نحمل على عاتقنا القيام بهذا العمل المجهد، وتشجعنا للإمساك بهذه التجارة الصعبة الاتقان، وبدأنا السير في هذه الطريق التعيسة، وكنا لربما نصل إلى النهاية لولا بعض المعوقات التي عكرت صفو عملنا

كالسفرات إلى هنا وهناك، وبشكل أخص المصاعب المختلفة التي تواجهنا كل يوم في وظيفتنا هذه الجديدة، وتدبير النفوس التي تقلق رأسنا بالنا كثيراً جداً، وتتوهنا من أن نتوجه نحو الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا من قبل، ونسير بنشاط نحو الهدف الذي وضعناه من قبل؛ ولكن كل هذه الأمور لا تجعلنا نتراجع عما عقدنا العزم عليه، ونعود عن هدفنا، وها نحن يقظون لمتابعته عملنا في تلك الفترات القصيرة، رغم مشاغل الخدمة المقدسة والروحية، التي تعيقنا عن عملنا الطويل والمجهد، ولكن وبالعون الإلهي وصلنا إلى الحروف الأخيرة، ولنا أمل إن أعطانا الرب عمراً أن نصل إلى الختام بعد فترة غير طويلة، ليضم مؤلفنا هذا ما استطعنا جمعه من الألفاظ الكثيرة، ويكون خصباً ومتوفراً ليس فقط أن تتوفر فيه ألفاظ القواميس المذكورة، إنما جمعنا مفردات أخرى من كُتّاب معروفين ومشهورين كتبوا باللغة السريانية أمثال: مار أفرام ونرساي ويعقوب السروجي والرهاوي واسحق الانطاكي أو النينوي وإيليا الأنباري وابن العبري وعبد يشوع الصوباوي وتوما الرهاوي وابن الصليبي وغيرهم، هؤلاء الذين نرى من الأفضل أن نضم أسماءهم كلها هنا مع الكتب المخطوطة بشكل تام؛ هؤلاء ورفاقهم الذين كتبوا بصفاء وصقالة بلغة مار أفرام الحلوة، هؤلاء يتمجدون، ويتمجد كل أبناء الجنس الآرامي، وبالأخص كل واحد من الكنسيين الذين يتوجب عليهم أن يتفرغوا لتدريس هذه اللغة بكمال ولياقة، وكم يستحق المديح والاحترام كل من يعرفه، وعلى العكس من هذا فكم يستحقون الذم والعار هؤلاء الذين لا يسيرون به.

إن أردت أيها القارئ الحبيب أن تجدّ وتنجح في تعلم اللغة الآرامية بكتب هؤلاء المعلمين الأماجد ورفاقهم المذكورين الآن، طالع واقرأ، وتشبَّه بهم، ومثل النحلة التي تحطُّ على الأزهار المختارة والنظيفة وتمتص الرحيق لتصنع منها عسلاً، أنت أيضاً على السوسن المزهر بأعمال هؤلاء الجبابرة استقر، ومنهم امتص المواد الكلام الحلوة والطيبة والعظيمة، فالرفعة والعظمة والسطوه والجمال والقوة هي بهم، وليس بهؤلاء الذين يدخلون إليه الألفاظ الغريبة، وخصوصاً اليونانية والتي بها تفسد وتدنس اللغة بقوة؛ فلتكن ألفاظك أهلية لا غريبة، أصلية لا دخيلة، مستعملة لا جديدة، طاهرة لا مدنسة، واضحة لا غامضة.

إن كل الألفاظ (في القاموس) كما هم بالأصل مرتبة في هذا العمل، وبعد الأصل تأتي فروعه وزياداته، وكل ما يصدر عن الأصل، إن أردت أن تفتش عن لفظة ما، إن لم يكن فيها غير الحروف الأصلية (مجردة لا مزيدة)، اطلبها في فصل حركتها الأولى، وإن كان فيها حروف زائدة، جرِّدها من الحروف الزائدة واطلبها في فصل حرفها الأول، وهكذا تطلب (ܐܬܐܡܪ) في (ܐܡܪ) وتطلب (ܐܬܐܟܠ) في (ܐܟܠ) و (ܐܫܬܥܒܕ) في (ܥܒܕ) و (ܐܫܬܠܡܕ) في (ܠܡܕ) و (ܬܫܬܥܫܝܢܘܬܐ) في (ܢܦܫ) و (ܡܘܡܟܢܐ) في (ܡܠܐ) و (ܡܬܡܨܝܢܐ) في (ܡܨܐ) و (ܕܝܢܐ) في (ܕܢ) وهكذا، وهذا كله يشرح لك الاستعمال والعمل (أي بالخبرة).

أمّا الكلمات أي الألفاظ اليونانية فربما زالت لأنها ليست غرضنا، ومع هذا ففي كتابات بعض المؤلفين عدد منها ليس بقليل دخلت بين الألفاظ السريانية، وقد (شرحناها) كيلا يحرم الباحث من معرفة معانيها؛ فأنت ابتعد من الخلط المعوج للألفاظ الغريبة بين تلك المأنوسة والأهلية، لكن ليكن كلامك صافياً وطاهراً ونظيفاً.

نعم أمور كثيرة تطلبت لإتمام هذا العمل، نعرفها ونعترف بها بوضوح، وكيلا نضل أو نتوهم أننا حققنا للمتعلمين والأدباء أو حققنا أمل المتعلمين والأدباء، وملأنا حاجة الطلاب بعملنا هذا القاصر، ولا حاجة للتنبيه بأن مثل هذه الأعمال لا مفر فيها من مساعدة الآخرين والهدوء وبقية الوسائط التي تمهد الطريق، وتصوب وتوصل للهدف، ونستطيع القول أنه لم تُقدم لنا أي من تلك المساعدات الضرورية.

إنه نوع (القاموس) قمْناه مرتباً ومصححاً وقابل للزيادة، ومن هنا نرجو بتواضع لكل هؤلاء الذين لهم غيرة على اللغة الآرامية الغالية، وخصوصاً لهؤلاء الذين يحفظون أي يهتمون ويدققون طبعها، أينما تطلب التنظيم ينظمون، وأينما يناسب التصحيح يصححون، وأينما تفيد زيادة يزيدون، ربما فكرنا يتوق للسمو الذي ليس إلاّمدخلاً خاصاً للطلاب الأحباء.

أخيراً نرجو من كل الذين يصادفون هذا الكتاب أن يظهروا لنا طية وحسن إرادة وإحساناً إلينا والعفو والصفاء، ويساعدوننا بصلواتهم الصالحة، ومجدنا ومساعدتنا هي من الرب، وعليه نتكل، وإليه نتوجه. آمين.

كتب في صومعتنا المطرانية، في أورميا في فارس